جمهوريّة العراق
وزارة التّعليم العالي والبحث العلميّ
جامعة ديالى
كليّة التّربية للعلوم الإنسانيّة
قسم اللغة العربيّة
الدّراسات العُليا

بلاغة الحِجاج في خطب العصر الأمويّ

أطروحة مقدَّمة إلى

مجلس كليّة التّربية للعلوم الإنسانيّة / جامعة ديالى

وهي جزءٌ مِن متطلَّبات نيل شهادة دكتوراه فلسفة في الّلغة العربيّة وآدابها

من قبل الطّالب
عبدالله محمّد عبدالله السّلطانيّ

بإشراف
الأستاذ الدّكتور
فاضل عبّود التّميميّ

1442هـ 2021م

المبحث الأوّل:وسائل التّأثير في الخطابة.

وهي وسائل لها علاقة في تلقّي الخطبة، وبناء نصّها، واكتمال رؤيتها من خلال مجموعة من الإجراءات الّتي لها سلطة في حبك الخطبة، وانفتاح دلالاتها:-

أ-مراعاة المقام ومقتضى الحال:

عرّف النّقاد والبلاغيّون العرب القدماء البلاغة بأنّها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، وتحدّثوا كثيرًا عن المقام ومقتضيات الحال، وأولوه عناية كبيرة، فيذهب الجاحظ إلى أنّ الخطيب ينبغي له أن يلزم هذا الأمر:"إنّما مدار الشّرف على الصّواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقامٍ من مقال"[1]، وما ذلك إلّا لتعزيز المواقف والمعتقدات الّتي يريد لها التّوغّل في نفوس المتلقّين، فنفهم أنّ العرب جعلت المقام الرّابط المهمّ بين نوع الخطاب وصورته وبين حال المخاطب، فيقتضي من الخطيب المفوّه أن يعتني بمقامات السّامعين، وأحوال المخاطبين، وإلّا وقع في منزلق كبير يؤدّي به إلى اللغط والسّفسطة دون جدوى، إذ ينبغي له أن يكلّمهم على قدر عقولهم ومداركهم ومنازلهم؛ لأنّ الأمر يرتكز على إفهام كلّ قومٍ بقدر طاقتهم، والحمل على منازلهم، فلا يخاطب الملوك مخاطبة العامّة؛ ولا السّوقة بكلام الخاصّة، وإذا أحسن وأتقن وأجاد ذلك يعني بلوغه أعلى مراتب البلاغة.

ويمكن القول أنّ إشكاليّة المقام من وجهة نظر حجاجيّة تُعنى بمراعاة المقام وشحنه بالطّاقة الحجاجيّة اللازمة للإقناع، بل إنّ ضرورة الانتباه إلى مقتضى الحال، ومقام السّامعين لا غنى للخطيب عنه متى رام الفعل في الآخر، وأراد حمله على الإذعان لسلوك أو موقف معيّن[2]، فمن الخطأ الجسيم أن نغفل حضور المتلقّي في ذهن الخطيب في كلّ جزء من أجزاء الخطبة؛ لأنّه سيؤدّي بالنّهاية إلى خفوت الطّاقة الحجاجيّة للخطاب، وإخفاقه في التّأثير، وكان (أرسطو)

---

[1] البيان والتبيين:136.

[2] ينظر:الحجاج في الشعر العربي (بنيته وأساليبه): 90.

قد تحدّث عن ذلك، إذ أشار إلى أثر المقام والحال في كلامه عن حجة (اللوجوس)، الّتي تُعنى بالكلام نفسه من حيث أنّه يقنع بالحقيقة المراد إثباتها بواسطة إيراد حجج مقنعة، وهذا الكلام وهذه الحجج الواردة تتعهّد أن تتناسب وتنسجم مع الحال المطلوبة[1]، ويبدو أنّ هذا التّشديد في فرض التعهّد على العناية بالمقام في الخطابة على وجه الخصوص يأتي من مسوّغات في غاية الخطورة، فالمتلقّي ينبغي أن تكون له علاقة قويّة مع النّصّ بوساطة الفهم المباشر؛ لأنّه نصّ ينعدم ويموت مباشرة بعد الإلقاء فلا سبيل إلى مراجعته ولا سبيل لمعاودة النّظر فيه؛ لأنّه شفويّ يُستهلك استهلاكًا آنيًّا مباشرًا[2]، ولذلك نجد ضرورة قصوى في الإحاطة بشأن مكانة المقام ومقتضيات الأحوال، ومواءمة الخطاب لطبقات السّامعين وأقدارهم، ومنازلهم الفكريّة، والعقليّة، لأجل انجاز التّيقين، والتّصديق في عقولهم وقلوبهم، إذ عدّها (بيرلمان) حمولات فكريّة تؤسّس المنطلق الأوّلي في العمليّة الحجاجيّة[3]، ومن ذلك يتّجه الخطيب نحو الاستدلال على قضيّة معيّنة، أو رأي محدّد للحصول على تسليم الجمهور وقبول أفكاره بأساليب مختلفة، وقد حرص خطباء العصر الأمويّ على استعمال الإيجاز في مقامه المناسب، والإطناب في الموضع الملائم، فلا يستعمل هذا بدلًا من ذلك، فذلك سيؤثّر سلبًا على بلوغ المراد، وصناعة الإذعان.

وتبقى الخطبة صورة حيّة لنفس قائلها، ومرآة عاكسة لروحه، فيكون لزامًا عليه أن يفي كلّ مقامٍ حقّه من التّعبير؛ لأنّه يُستحسن أن يتخيّر ألفاظ خطبته، ويجعلها تناسب المقام التّخاطبيّ الّذي يعيشه، والموضوع الّذي يروم خوض غمار شرحه وبيانه، ولهذا كان هناك تفاوت أسلوبيّ في خطب العصر الأمويّ بين القوّة والجزالة، والفخامة والرّقّة واللين، ويعود هذا عادةً إلى طبيعة المقام، فإذا كان وعظيًّا دينيًّا، يرغب الخطيب من ورائه التّأثير في جمهوره واستمالته؛

---

[1] ينظر: البلاغة العربيّة في ضوء البلاغة الجديدة(الحجاج)، د.عبدالله صولة:بحث: ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، حافظ إسماعيلي علوي، ج1 :30.

[2] ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه): 89.

[3] ينظر:الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج (الخطابة الجديدة) لبيرلمان وتيتكا، عبدالله صولة: 308، (بحث) ضمن:أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود.

فيُستحسن أن يلجأ إلى الكلمات الليّنة الّتي تمسّ شغاف القلوب وسويداءها، وخلاف ذلك إذا كان المقام يتعلّق بأمر سياسيّ أو توجيه دينيّ فقهيّ يكون فيه من التّعظيم والتّفخيم ومحاججة الخصوم[1]، لذا تكون ألفاظ الخطبة متأثّرة إلى حدّ كبير جدًا بالمقام والموضوع، وتتناسب معه قوّة وضعفًا، ورقّة وسلاسة، وعذوبةً، وخشونةً، وغرابةً وفخامةً، وتخضع خضوعًا تامًّا للمقولة النّقديّة الحصيفة: لكلّ مقامٍ مقال.

حرص خطباء العصر الأمويّ على هذا الرّكن العتيد في بناء خطبهم السّياسيّة والدّينيّة والوعظيّة، ووصلوا إلى مستوى الحذق الفنّي لاسيّما أنّهم كانوا من البلغاء الأفذاذ، وأمراء البيان، وهذا ما نجده في خطب كثيرة، ومن ذلك ما جاء في خطبة الإمام الحسن(50هـ) الوعظيّة الّتي يقول فيها:**"اعلموا أنّ الحلم زين، والوقار مودّة، والصّلة نعمة، والإكثار صلف، والعجلة سفه، والسّفه ضعف، والقلق ورطة، ومجالسة أهل الدّناءة شين، ومخالطة أهل الفسوق ريبة"**[2].

لقد بدأ الإمام خطبته باستلزام أمريّ أفاد النّصح، وبصورة مباشرة دون استهلال وتقديم، أنجز به وظيفة إستراتيجيّة في ضمن العمل التّواصليّ بضربة تنبيه يتطلّبها المقام، والرّغبة في تحقيق مقاصد الخطاب، ليحكم التّأثير في المتلقّين، بصورة عبارات موجزة قصيرة حثّت على التّحلّي بقيم سلوكيّة وأخلاقيّة، تدعو إلى مبادئ إيمانيّة تنقل السّامعين لجوّ وعظيّ جليل، وإنتاج الفعل المحمود، وتجنّب ما هو مذموم من تلك السّلوكيّات، ويرجع سرّ عنصر الاختيار لهذه العبارات والألفاظ المشحونة بالإيجاز، والاعتدال، والإبانة مراعاةً للمقام الّذي هو فيه، فمنحها شحنة حجاجيّة بلاغيّة نافذة؛ لأنّها جاءت بصياغة توائم أحوال الجمهور، وجوّهم النّفسيّ، ليضمن حصول التّأثير والإذعان والاقتناع، يقول القرطاجنّي:"وكلّما وردت أنواع الشّيء مترتّبة على نظام متشاكل، وتأليف متناسب، كان ذلك أدعى لتعجيب النّفس وإيلاعها بالاستماع

---

(1) ينظر:الخطيب الناجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع: 61.

(2) جمهرة خطب العرب في عصور العربيّة الزاهرة، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلميّة، بيروت-لبنان، ج2: 18.

من الشّيء، ووقع منها الموقع الّذي ترتاح له"[1]، فالإمام بذلك ظهر بمقام الواعظ الحكيم، ممّا دفعه إلى إيراد أقوال حملت دلالة الأمر والنّهي ، ولهذا جاءت بأسلوب موجز واضح يتّسم باللين والرّفق والرّقّة، فلا يكفي أن تكون الأدلّة مقنعة ما لم تُقدم بسياق أسلوبيّ مقنع يجوّز تلك النّتائج، فيضع (أرسطو) المقام في المرتبة الثّانية بعد البراهين والحجج ممّا يبرز نجاعته وقوّته الحجاجيّة في الخطاب، فهو وثيق الصّلة بوقوع عمليّة الإقناع، أو الاقتناع وسلب المشاعر، إمّا بالمحاكاة وإمّا بالتّعبير المباشر ممّا لا محاكاة فيه[2]،ويؤدّي هذا البناء الحجاجيّ إلى سرعة الاستجابة من المتلقّين، والإذعان لما أمرهم به، ونهاهم عنه، لحصول الانسجام بين الأسلوب، والنّتائج وبين طبيعة المقام والموضوع، فحقّق المبتغى لأنّه جاء بالخطبة كما ينبغي ، فحرّك مشاعرهم، وسطا على عقولهم، فهو قام بالتّركيز على أهواء المخاطبين وربط الحجاج بهم بعد استثارتهم واستهوائهم.

ومن تلك الخطب خطبة معاوية(60هـ) بالمدينة سنة 41هـ فحمد الله وأثنى عليه، ثُمَّ قال:**"وأمّا بعد، فإنّي والله ما ولّيتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرّة بولايتي، ولكنّي جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نفارًا شديدًا، وأردتها على سُنيّات عثمان، فأبت عليّ. فسلكت بها طريقًا لي ولكم فيه منفعة: مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم، فإنّي خيركم ولايةً، والله لا أحمل السّيف على من لا سيف له، وإن لم يكن إلّا ما يستشفي به القائل بلسانه، فقد جعلت ذلك دبر أذني، وتحت قدمي، وإن لم تجدوني أقوم بحقّكم كلّه فأقبلوا منّي بعضه، فإن أتاكم منّي خير فاقبلوه، فإنّ السّيل إذا جاد يثري، وإذا قلّ أغنى، وإيّاكم والفتنة، فإنّها تفسد المعيشة، وتكدّر النّعمة"[3].**

---

[1] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق:محمد الحبيب بلخوجة، طبعة دار الكتب الشرقية ، تونس: 245.

[2] ينظر:النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، 1987: 113.

[3] أدب السياسة في العصر الأموي، د.أحمد محمد الحوفي، دار القلم، بيروت-لبنان: 285-286.

لا يخفى على القارئ أنّ معاوية في خطبته السّياسيّة رام إثبات أحقّيته بالخلافة، وكاشف أهل المدينة بأنّهم لم يختاروه حاكمًا، ولكنّه قهرهم على ذلك؛ فأنفسهم لم تكن تطيب له أبدًا، وكما يبدو قد تباينت ألفاظه، فبدأت بلغة تهديد شديد وانتهت بلين، وسلك منهجًا حجاجيًّا ناسب المقام والمقاصد المنشودة من الخطبة، فالتّعنيف جاء ملائمًا مع بعض السّامعين، الّذي انطوى على دفاع عن النّفس بشكلٍ إيحائيّ، عمد فيه إلى مفردات جزلة ذات صبغة عدائيّة موائمة لمقام الجمهور، ومنسجمة مع دعواه بالأحقّيّة مع غلق المجال لدعوى مناقضة قد تبدر من الجمهور بوصفه الأصلح لولايتها وإن لم يكن خير النّاس، فحكمه خير من حكم غيره، فيظهر الإقناع بصورة خفيّة، أو ما يعرف بالإقناع السّرّيّ، فكثير من التّكوينات العديدة في مجال التّواصل الخطابيّ، ليست إلا طرائق لحصر الآخر في فخّ فكريّ لا يمكن أن يتخلّص منه إلاّ بتبنّي الفعل، أو الرّأي الّذي يقترحه الخطيب[1]، ليحقّق بذلك الإذعان والتّسليم لنفوس المتلقّين، من أجل بسط نفوذه والدّعوة إلى طاعته، بعد أن أشار إليهم بالعداوة والبغضاء له، ومشواره في القتال في سبيل الوصول إلى السّلطة، ممّا صنع نوعًا من التّهويل والتّفخيم اللافت للانتباه، الّذي ترك أثرًا حجاجيًّا بليغًا في قلوبهم، أوحى إليهم باستحالة مناهضة خلافته ومعارضتها مستقبلًا، وكأنّه بثّ روح الضّعف، والوهن، والاستسلام في ذواتهم في بداية الخطبة، ثمّ ما لبث أن عاد إلى لغة الإغراء، واللين، والاستمالة، باعتراف أشار فيه إلى أنّه ليس أفضلهم علمًا وفضلًا ودينًا، ولكنّه صرّح بأنّه حتمًا الأصلح للخلافة، وأنّ سيفه لا يعلو رقاب لا تشهر سيفها ضدّ بلاطه، ويبدو أنّ معاوية أراد أن يظهر سلميّته مع من يسالمه مع الوعد بالعطاء جزاءً للطّاعة، والخضوع لبلاطه بصورة حوار حجاجيّ حميم ومقنع بين الرّاعي والرّعيّة، الّذي عزّز موقف الشّرعيّة لحكمه لديهم بأسلوب السّياسيّ الديماغوجيّ(السّفسطائيّ)"فالبلاغة كلّ ما تبلّغ به المعنى إلى قلب السّامع فتمكّنه في نفسه، كتمكّنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن"[2]، في محاولة لكسب رضاهم، وقناعتهم واستمالتهم بوسيلة الإغراء الّتي وافقت حال المخاطبين ومقامهم،

---

[1] ينظر:الحجاج في التواصل،فيليب بروطون، ترجمة:محمد مشبال، المركز القومي للترجمة، ط1، 2013 : 25.

[2] كتاب الصناعتين: 10.

ليحملهم على مشاطرته وجهة نظره، ودفعهم إلى الإيمان بما يؤمن به معاوية، فظهر الخطيب بوصفه رجل سياسة أو ملكًا، لا رجل دين أو خليفة للمسلمين، الّذي يمثّل سلطة شرعيّة دينيّة.

والحقيقة أنّ خطباء البيت الأمويّ كانوا يقفون دائمًا موقف السّاخط المنتقم على الرّافضين والثّائرين على سلطتهم، ولهذا غلبت لغة الوعيد على خطبهم، ولهذا كانت الطّابع العامّ لنسق البناء والغاية فيها.

ومن خطب الزّبيريين ما ألقاه عبدالله بن الزّبير(73هـ) في مجلس معاوية حين وفد عليه، وممّا ورد في تلك الخطبة:**"أسألكم بالله: أتعلمون أنّ أبي حواريّ رسول الله(صلّى الله عليه وآله وسلّم) وأنّ أباه أبا سفيان حارب رسول الله(ص) وأنّ أمي أسماء بنت أبي بكر الصّدّيق، وأمّه آكلة الأكباد؟ وجدّي الصّدّيق وجدّه المشدوخ ببدر، ورأس الكفر، وعمّتي خديجة ذات الخطر والحسب، وعمّته أم جميل حمّالة الحطب؟ وجدّتي صفية وجدّته حمامة؟ وزوج عمّتي خير ولد آدم محمّد(ص)، وزوج عمّته شرّ ولد آدم أبو لهب، سيصلى نارًا ذات لهب؟ وخالتي عائشة أمّ المؤمنين، وخالته أشقى الأشقين؟ وأنا عبدالله، وهو معاوية"**[1].

يعي اللسان العربيّ المحاجج جيدًا من أين يسعى في خطابه الّذي يراعي مقتضى الحال والمقام، فهو بدأ بمباغتة حجاجيّة بالاستلزام الاستفهاميّ صدمت الخصم والحاضرين، وهذا ما نراه في هذه الخطبة التّناظريّة التّفاخريّة، إذ توغّل ابن الزّبير إلى قلوب السّامعين في البيت الأمويّ، وبنى خطابًا حجاجيًّا مزلزلًا من خلال الدّخول إلى المنطقة الرّخوة لدى معاوية، فمن الواضح أنّه لم يتحاش التّصريح عن أيّ حقائق مسكوت عنها، فكان شديد التّأثير، آسرًا للنّفوس، وسريع النّفاذ إلى العقول بغية الإقناع، وكسب المنازلة، وهو ضرب من"دنو المأخذ، وقرع الحجّة، وقليل من كثير"[2]، إذ أجاد إثارة ذهول الحاضرين من بداية الخطبة حتمًا فـ"حسن

---

[1] جمهرة خطب العرب: 160-161.
[2] كتاب الصناعتين: 22.

الافتتاح داعية الانشراح"[1]، بسرد حقائق واضحة تبيّن فضله دعت إليها ضرورة التّجادل.

لقد هدم عبدالله بن الزّبير أركان البلاط الأمويّ، وأنجز عليه، وكسر أفق توقّع معاوية إلى حدّ الصّدمة بهذه الجرأة بما صدّح به من حقائق، ووقائع أمام حاشية الحاكم، وملأه المقرّب، فلم يبق له شيئًا في هذا المقام التّفاخريّ الّذي اتّخذ فيه عبدالله شكلًا من المناظرة الّتي انطوت على حجاج بليغ مباشر بالاستلزام الاستفهاميّ الإنكاريّ مبتعدًا عن التّكلّف، والتّنميق لمراعاة مقام سامعي الخطبة، إذ تعمّد أن يلحّ طويلًا على بعض العناصر لتمديد الانتباه وخلق الدّهشة، فيكثّف من حضورها في وعي المتلقّين، فالإلحاح، والتّكرار للتّفاصيل وبعض الأمور أدّى إلى تفخيم ذات الخطيب وتعزيز مكانته، وحمل السّامعين إلى الإذعان والتّصديق بأقوال هذه الشّخصيّة، وتعظيم أمرها، وهذا شّكل حجاجيّ من أشكال تقديم الواقع، ويعدّ شكلًا حادًّا من أشكال الخطاب الحجاجيّ[2]، إذ رأى ابن الزّبير هشاشة نسب معاوية دينيًّا، فوجده منطقة ضعيفة فانقضّ عليها ليدعم حجاجه ويحمل خصمه على الإذعان والإقرار بشرف نسبه، وعلوّ منزلته.

تتطلّب مقتضيات الحال ردًّا سريعًا على معاوية في مقام المفاخرة، فلجأ ابن الزّبير إلى ما يناسبه من الحديث، فبات يطرق أبواب النّسب والانتساب لكلّ منهما، ليصرّح بعظمة نسبه وكرمه قبالة وضاعة نسب الخصم، وبآليّة تقسيم الكلّ إلى الأجزاء من أجل زيادة الإقناع، وإماطة اللّثام عن أسرار تخدش كرامة المناظر الآخر، وعداوة أجداد النّدّ للدّعوة الإسلاميّة، ولا شك أنّنا على يقين بأنّ الأمويين كانوا متشدّدين للقوميّة العربيّة، فلهذا راح الخطيب يفتخر بمجده، ويوجع خصمه بحمله على الذكرى بتأريخ مظلم لآبائه وأجداده، ويلقي عليه حشدًا من الحجج في ديباجة واضحة وجليّة لدى الملأ، عازفًا عن اعتماد ما غمض من الألفاظ، ومتجنّبًا الأساليب الموغلة في المجاز، وفي متواليات استفهاميّة تنفتح على حقائق تخزي الخصم، وتقعده عن المقاومة، وتعجزه عن الرّدّ، فجاء بما هو أعمّ نفعًا، وأبلغ حجّةً، وأعظم برهانًا، وألطف

---

[1] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني(456هـ) ت:عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، لبنان،2007: 225.

[2] ينظر:الحجاج في التواصل:106.

موازنـــةً، فشـــتّان مـــا بـــين حـــواريّ رســـول الله(ص) وأبـــي ســـفيان، وأســـماء(رض) وهنـد، والصّدّيق(رض) ورأس الكفر عتبة بن ربيعة...الخ، ممّا جاء من فخر بصورة حسنة، وبسوق الشّواهد، ولاسيّما الشّاهد القرآنيّ، ليقرع به سمع معاوية وقلبه، ويلقي عليه الحجّة الوُضحى ، ليذعن لما قال ويسلّم به، ويقرّ بدون اعتراض محتمل، وقد ختم ابن الزّبير خطبته بضربة حجاجيّة قاسية، جاءت له نتيجة الفضل والشّرف والعلياء بقوله:**"وأنا عبدالله، وهو معاوية"**، وأعتقد أنّه يريد أن يقول بأنّ البون بينهما واسع، ولا يمكن الموازنة بينه وبين صاحبه في حال من الأحوال.

ب-براعة الاستهلال:

لقد كان خطباء العصر الأمويّ شأنهم شأن غيرهم في العصر الإسلاميّ، يستهلّون خطبهم بالتّحميد، ويصدّروها بالتّمجيد، وهذا التّقليد الفنّيّ قالب ثابت في مظاهرها الأسلوبيّة والبنائيّة، وقد حرصوا عليها لأنّها تمثّل صورة من صور الثّقافة الإسلاميّة للخطيب، فهي بمنزلة المطلع أو المقدّمة في القصيدة، لذلك كان يُستلزم من الخطيب أن يكون استهلاله مؤثّرًا ومستساغًا، ويذهب (أرسطو) إلى أنّ الاستهلال بدء الكلام، ويناظره المطلع في الشّعر، وفي فنّ العزف على النّاي(الافتتاحيّة)، وهي بدايات كأنّها تفتح السّبيل إلى ما يتلو[1]، وشدّد عليها في الأقوال البرهانيّة ليبدأ التّعبير عمّا نقصد إليه، ثم نسترسل، وكان لزامًا على الخطباء أن يتقيّدوا بهذه القاعدة، ولاسيّما في المناظرات الّتي تتضمّن في طيّاتها اتّهامات ومساجلات[2].

أمّا النّقاد العرب القدماء فكان الاستهلال محطَّ عنايتهم، وعدّوه من أوصاف الخطبة، وكانوا يسمّون الخطبة الّتي لا تُفتح بالتّحميد بالبتراء، يقول الجاحظ:"وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أنّ خير أبيات الشّعر الّذي سمعت صدره عرفت قافيته"[3]، ولكنّها تبقى ظاهرة غير كلّيّة على جميع الخطب في العصر الأمويّ، فلكلّ مقام مقال، والبعد الحجاجيّ في الاستهلال ينبع من أنّه يأتي بالكتلة العاطفيّة الّتي تخاطب شعور المتلقّي من أوّل وهلة لانتزاع استمالته، فهي لحظة الاستهواء في التّصوّر الأرسطيّ، الّتي تستهدف الإقناع، ويرى (بيرلمان) أنّ التّرتيب في قضايا البرهنة الشّكليّة غير ذي أهمّيّة، وخلاف ذلك حينما يكون الغرض الاحتجاج قصد مشاركة المستمعين؛ لأنّ ترتيب عرض الحجج يكيّف شروط القبول عند هؤلاء، وهذا ما نجده حاضرًا في خطب ذلك العصر الّذي شهد ما شهد من السّجال والمناظرات، والمجادلات، ومن ذلك خطبة الإمام الحسن(عليه السّلام):**"أمّا بعد:فإنّ الله كتب الجهاد على خلقه، وسمّاه كُرهًا، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين:اصبروا إنّ الله مع الصّابرين، فلستم**

---

[1] ينظر:الخطابة، أرسطو طاليس، ت:عبد الرحمن بدوي، مطبعة الرسالة، دار الرشيد للنشر، بغداد ، 1980 :233.

[2] ينظر:المصدر نفسه:234.

[3] البيان والتبيين:84.

أيّها النّاس نائلين ما تحبّون إلاّ بالصّبر على ما تكرهون. بلغني أنّ معاوية بلغهُ إنّا كنّا أزمعنا المسير إليه، فتحرّك لذلك، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم في النّخيلة، حتّى ننظر وتنظروا، ونرى وتروا"[1].

لا شكّ أنّنا نرى استهلالًا مباشرًا دون إطناب في الدّخول إلى مضامين الخطاب، وجاء ذلك مراعاة لمقام الخطبة الحربيّ أولًا، الّذي يتطلّب دخولًا مباشرًا دون إبطاء، ولاستدعاء الإصغاء من المتلقّين ثانيًا، وهو ضرب من التّنبيه، ونوع من التّعريض بمنزلة الجهاد عند الله (جل جلاله)، ممّا زاد الشّحنة العاطفيّة الحجاجيّة في الخطاب، وهذه حقيقة مشتركة، وحجّة يقينيّة لا تقبل الشّكّ والرّفض، أفرزت نقطة انطلاق حجاج متمكّنة تبعث الطّمأنينة والقبول والإقناع من المستمعين لمطابقتها بنى الواقع، إذ يذهب (أرسطو) إلى أنّ الإقناع يقع حين يهيّئ الخطيب جمهوره ويستميلهم بقوله ،حتّى يشعروا بانفعال ما ،لأنّ الخطاب يروم توليد القناعات في كلّ موضوع يطرحه المتكلّم، وحمل الجمهور على الفعل في السّياق التّواصليّ، فالحسن(ع) قد عدّ لأذهان مخاطبيه الخطاب الأسمى لإنزال الاعتقاد في نفوسهم، وحملهم على الإيمان بوجوب فرضيّة الولوج في الجهاد لقتال معاوية، ولاسيّما أنّه قد ألقى عليهم حجّة ثقيلة ساطعة البرهان بالتّناص مع النّصّ القرآنيّ في قوله تعالى:**"كُتب عليكم القتال وهو كرهٌ لكم"{البقرة:آية 216}**، فالنّصّ الدّينيّ يمتلك موجات حجاجيّة يحمل المتلقّين على التّسليم، نظرًا لقدسيّته وسلطته العالية على النّصّ الأدبيّ، إذ يعدّ البعد الدّينيّ للنّصوص أعظم مصدرٍ للقوّة النّفسيّة المؤثّرة، ذلك لأنّه يمسّ أصفى المشاعر وأرقّها، وأطهرها وأبسطها، ترغيبًا للنّفوس في الطّاعة لأولياء الأمور وحبّ الدّين وصناعة الانفعال[2]، فلم يترك ذلك مجالًا أمام السّامعين بالتّثاقل عن نصرة إمامهم والقتال معه، فالإكراه للقتال ليس مشروعًا وغير مُبرّر، فما هو إلّا كتاب مكتوب، وأمر إلهيّ بنصرة الدّين، ممّا دفع السّامعين إلى التّسليم والتّصديق، أو كفّ نفوسهم عن الخذلان.

---

[1] جمهرة خطب العرب: ص9.

[2] ينظر:الخطيئة والتكفير من البنيوية الى التشريحية(قراءة نقدية لنموذج معاصر)، د.عبدالله الغذامي، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، ط6، 2006: 57.

ومن براعة الاستهلال ما نجده في خطبة عبد الملك بن مروان(86هـ) في السّخط على أهل العراق بعد أن علم بثورة ابن الأشعث على الحجّاج، فخطب في النّاس بعد حمد الله والثناء عليه،قائلًا:**"إنّ أهل العراق طال عليهم أمري، فاستعجلوا قدري، اللّهمَّ سلّط عليهم سيوف أهل الشّام، حتّى يبلغوا رضاك، فإن لم يبلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك"**[1].

استثار عبد الملك جمهوره المتلقّي في استهلاله الموجز هذا، تبعًا لما يقتضيه موضوع الخطبة، وخاض غمار الغرض ممّا استدعى الإصغاء بعبارات وجيزة وقصيرة انفتحت على دلالة الغضب بقوله آنف الذكر، فكأنّه أوحى لجمهوره الشّاميّ بأنّ أهل العراق من الخوارج على خليفتهم الشّرعيّ، فشحنهم بدافعية الوجوب لقتالهم، والقضاء عليهم، بصورة استبداديّة أضفى عليها لونًا من الشّرعيّة لتكون بمنزلة حجّة على المحكومين بالقتل بسيوف الشّاميين في سبيل رضا الله، وما هذا إلّا نوعًا من الإغراء، والإيهام، والمناورة، لجأ إليه الخليفة ليتسنّى له بناء خطاب حجاجيّ يحملهم على التّيقين بضرورة الانخراط بالقتال ضدّ أهل العراق، فآليّة الإغراء والإغواء تبقى على الدّوام إحدى أهمّ الوسائل للحمل على الإقناع الّذي يتّخذ أشكالًا مختلفة تعمل على زيادة حضور الخطاب واستساغته في الأذن الّذي يخلق إحساسًا بالوضوح[2]، فلا حجاج ما لم نقنع الآخر بمشروعيّة السّعي إلى ما نروم إليه، خصوصًا عندما نكون في سياق يتّسم باستعمال تقانات التّطويع في السّياسة لتحقيق اتّفاق المتلقّي العامّ[3]، فالمتكلّم يقيم حجاجه على هذا الأساس حتّى يلقى القبول عند المستمع، ليكون مصداقًا إلى استمالته، وجعله يذعن لما يريده، وهذا ما صنعه عبد الملك بخطف استمالة جمهوره إلى إلزاميّة قهر أعداء الخليفة، الّذي يمثّل سلطة شرعيّة ودينيّة في أذهانهم وتصوّراتهم العقليّة والنّفسيّة والعقديّة، فكان الاستهلال يمثّل نقطة الارتكاز الحجاجيّ، والتّمهيد المناسب لما سعى إليه ابن

---

[1] أدب السياسة في العصر الأمويّ: 297.
[2] ينظر:الحجاج في التّواصل: 25.
[3] ينظر: المصدر نفسه: 73.

مروان في خطبته هذه، والّتي ارتدت رداء القوّة والسّلطة كخطبته في مكة[1].

ومن ذلك أيضًا خطبة الخارجيّ الزّبير بن عليّ السّليطيّ (68هـ) في الأزارقة، بعد أن رأى فيهم انكسارًا شديدًا وضعفاً بيّنًا بعد هزيمتهم في معركة يوم سلى، فقال لهم:**"اجتمعوا، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النّبيّ(ص) ثم أقبل عليهم فقال:"إنّ البلاء للمؤمنين تمحيصٌ وأجرٌ، وهو على الكافرين عقوبة وخزي، وإن يُصب منكم أمير المؤمنين، فما صار إليه خيرٌ ممّا خلّف[...]والله يقول لإخوانكم المؤمنين"إن يمسسكم قرحٌ فقد مسّ القوم قرحٌ مثله وتلك الأيّام نداولها بين النّاس"{آل عمران:140}،فيوم سلّى كان لكم بلاء وتمحيصًا، ويوم سولاف كان لهم عقوبة ونكالًا..." "**[2].

إنّ وضع الخوارج النّفسيّ آنذاك كان يقتضي ويستلزم بشدة استهلالًا يشفي صدورهم، ويعيد لهم كبرياءهم وثقتهم، ولهذا استمدّ الخطيب معانيه من حجاج القرآن، فجرّ لسانه إياها جرًّا عامدًا أو غير عامد لأنّهم كانوا حفظة للقرآن، ليفخّم بذلك قوله، ويستقطب نفوس سامعيه إلى الامتثال والانقياد لما يبتغي، فالخطيب يريد أن يزيل تلك الغمّة من نفوسهم بقلب صورة الانهزام والانكسار إلى انتصار، واصفًا الهزيمة بلاءً واختبارًا من الذّات الإلهيّة الّذي ينتهي بهم إلى الأجر والثّواب في الدّنيا والآخرة، وكأنّه جعل أصحابه بمنزلة أصحاب الرّسول(ص) في يوم أحد، فمن هنا بدأت لحظات الاستهواء والاستمالة، ومرتكز الحجّة للقضيّة الّتي يرغب الخطيب في طرحها، فهذا النّصّ الحجاجيّ يبعث السّكينة في قلوب الخوارج بعد أن كانت ترضخ تحت سطوة الإحباط والخيبة، لاسيّما أنّه وشّح خطبته بالنّصّ القرآنيّ الّذي قرّر ما سعى إليه ببلاغة الحجّة، الّتي جعلت السّامعين في حالة إذعان تامّ، وتسليم مطلق بناء على ملامح الخطاب العامّة، إذ استدرجهم إلى ما يودّون مناقشًا عقولهم، ومحرّكًا أفئدتهم، ممّا جعل الاعتقاد واقع لا محالة، فالحجّة بليغة ولا تقبل الرّفض، أو الاعتراض، فتدفّقت فيها العاطفة بتعبير يتّسم بالقوّة والنّفاذ لتنتزع من أرواحهم صفة الشّقاء والاستسلام، وتجبّر قلوبهم المتصدّعة، ليقودهم إلى

---

[1] ينظر:جمهرة خطب العرب: 192.
[2] المصدر نفسه: 451.

شاطئ الإيمان والاطمئنان.

إنّ اتكاء الخطيب الخارجيّ على آليّة الإيهام في قلب صورة المشهد من السّوء إلى الحسن، اضطلع بدور إقناعيّ مختلف، من خلال الوعد وحسن الثّواب جزاءً للعبادة والجهاد حتّى مع حالة الانهزام في تلك الوقائع والمعارك، وهذا ما نسمّيه بالمشاركة الوجدانيّة من الخطيب مع جمهوره، الّتي لا تترك هوّة، أو ثغرة كبيرة تؤدّي إلى انهيار الخطاب الحجاجيّ، أو إخفاقه في تحقيق الإقناع.

ج- المستوى الموسيقيّ:

إنّ الحديث عن المستوى الموسيقيّ أمرٌ مهمٌّ للغاية، وراح العلماء يصرّون عليه كثيرًا، وقد خصّوه بالشّعر وألحقوه بالنّثر بضوابط محدّدة، إذ يضع (أرسطو) الصّناعة الصّوتيّة في الخطابة في منزلة وسط بين النّظم المُطّرد الوزن والنّثر المرسل، فيذهب إلى أنّ"شكل المقالة ينبغي أن يكون ذا وزن ولا عدد، فإنّ ذلك النّحو غير مقنع، لأنّه يظن أنّه مختلف أو يراد به التّعجّب...فأمّا الاسم اللا موزون(بدوي:الّذي بدون إيقاع) أي السّخيف فإنّه لا متناه(بدوي:غير محدّد)، وينبغي أن يكون متناهيًا بشيء وليس بوزن، فإنّ الّذي لا يتناهى فليس بلذي، وهو خفيّ مشكل، فقد ينبغي لذلك أن يكون للكلام نبرات، وأمّا وزن فلا"[(1)]، فيشير (أرسطو) إلى أنّ النّثر الخطابيّ لزامٌ أن يكون إيقاعيًا غير مطّرد الوزن، ولذلك يفضّل العبارة المقسّمة المتقابلة على العبارة المسجوعة؛ حتّى لا يظنّ المخاطَب أنّه مُختلق، أو يُراد به إثارة التّعجّب.

ولم يختلف العلماء العرب القدماء عن (أرسطو) في حديثهم عن موسيقى النّثر، إذ أكّدوا على حظوته، ولاسيّما المحور السّجعيّ المعتدل، الّذي يأتي عفو الخاطر من دون تكلّف كما يقول الجاحظ:"السّجع المزدوج دون القصيد والرّجز"[(2)]، فيفترض"أن يكون في بعض كلام العرب لا في جميعه، فإنّ السّجع في الكلام كمثل القافية في الشّعر، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها، والسّجع مستغنى عنه"[(3)]، وهذا يؤكّد حتميّة ضروريّة للمنزلة الوسط الّتي يحتلّها المستوى الموسيقيّ في الكلام الخطابيّ البليغ، حتّى لا ينمّ عن اطّراد السّجع والجناس وباقي الفنون الصّوتيّة من المحسّنات اللفظيّة، فينتهي إلى التكلّف الّذي يعوق الوظيفة البلاغيّة للخطاب، وهذا منافٍ للغاية الإقناعيّة الّتي ينشدها الحجاج في فنّ الخطب، ومع ذلك نحن لا نلغي وجوده بقدر ما نضبط له حضوره في النّثر"فلا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتّى يكون

---

(1) الخطابة: فصل8: 3.

(2) البيان والتبيين:288.

(3) البرهان في وجوه البيان، إسحاق بن إبراهيم بن وهب،ت:حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة ، 1969،ج1: 165.

مزدوجًا، ولا تكاد تجد لبليغ كلامًا يخلو من الازدواج"[1]، ولهذا سنعزف عن ذكر الخطب الّتي أغرقها خطباؤها بالسّجع والتّقفية؛ لأنّها حينئذٍ تخرج من مدار بلاغة الحجاج والإقناع، وتدخل في إطار الزّخرفة الشّكليّة.

وفي العصر الأمويّ الّذي بلغت فيه الخطابة العربيّة أوّج مستوياتها، ونضجها الفنّي، فقد اتّشحت الخطب بالتّناغم والتّواشج الإيقاعيّ المعتدل بألوان مختلفة عملت على صناعة التّوافق النّغميّ، والتّعادل الموسيقيّ في تراكيبها البنائيّة، فيلجأ إليها الخطيب لتحقيق الانفعال لدى الجمهور، وهذا الإيقاع حركة تموّجيّة انسيابيّة متدفّقة، وهو صوت يصدر ذبذبات تنبيه موقظة تترك أثرًا في استشاطة ألباب السّامعين واستمالتها نحو المقصد المأمول لإقراره وترسيخه، كونه يضطلع بفاعليّة حجاجيّة في عمليّة الإقناع، الّذي يعمل على تحفيز المخاطَب ليكون قادرًا على توليد دلالات وتأويلات، والميول إلى الإذعان والتّسليم[2]، ولعلّ أهمّ تلك الألوان والضّروب الموسيقيّة الّتي لاذ بها الخطباء في العصر الأمويّ هي:

1-السّجع:

ويأتي من توافق الفواصل في الكلام على حرف واحد[3]، فهو من الجماليّات اللفظيّة الّتي تصنع التّوافقات الصّوتيّة بين الألفاظ في البنى التّركيبيّة للخطاب، حيث يؤدّي إلى نوع من النّغم وضرب له"إيقاع يطرب الفهم لصوابه، وما يردّ عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه"[4]، بوصفه من المحسّنات البديعيّة البلاغيّة الّتي تأخذ حيّزًا كبيرًا في ساحة بناء النّسق الحجاجيّ، ليزيد المعنى قوّة وثباتًا في أذهان المتلقّين، شغف به الأدباء العرب على مرّ العصور، إذ إنّه من

---

(1) كتاب الصناعتين: 283.

(2) ينظر:الحجاج وتوجيه الخطاب مفهومه ومجالاته(تطبيقات في خطب ابن نباته): 136.

(3) ينظر:المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير،تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى الحلبي،القاهرة، ج1: 193.

(4) عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي(322هـ)، تحقيق:طه الحاجريّ، المكتبة التجارية، القاهرة: 15.

مميّزات البلاغة الفطريّة كونه حاضرًا في أكثر اللغات[1]، فيؤثرونه لأنّه أعمق أثرًا في النّفس، وأعلق وقعًا في الذّهن، وأخفّ على السّامع إذا كان بريئًا من التكلّف والتّصنّع، وقد أشار العسكري(395هـ) إليه فقال:"واعلم أنّ الّذي يلزم في تأليف الرّسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط، ولا يلزمك السّجع فيها، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن، ما لم يكن في سجعك استكراهٌ وتنافرٌ وتقعيد"[2]، ولهذا ذمّ النّقاد التّكلّف فيه لسماجته وثقله على السّامعين.

ومن عيون الخطب الّتي جرت على منوال البناء الموسيقيّ الحجاجيّ قول الإمام الحسين(61هـ):**"إنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشّيطان، وتركوا طاعة الرّحمان، وأظهروا الفساد،وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء"**[3].

يظهر جليًا عناية الحسين(عليه السّلام) بالوقع الموسيقيّ والرّنين الصّوتيّ، سواء أجاء بصورة السّجع غير المستهجن(طاعة الشّيطان، طاعة الرّحمن) أو عن طريق الازدواج (أظهروا الفساد، عطّلوا الحدود)، أو من التّوازي التّركيبيّ بين الجمل بالقدر والطّول، فالسّجع في فاصلتين لوهلة أنتج ضربة إيقاعيّة حقّقت توافقًا وتنغيمًا في موسيقى النّصّ، والّذي أدّى أثرًا حجاجيًّا لأصحابه بإلزاميّة الخروج للجهاد بالدّلالة الفكريّة الّتي خرج إليها هذا التّوافق الصّوتيّ، فالحجّة الشّرعيّة بليغة الأثر مبنيّة على حديث نبويّ شريف أطّر به الحسين خطبته، ممّا حقّق نوعًا من الإذعان والخضوع عند أصحابه، وبجوٍّ إيقاعيّ صوتيّ أشعرهم بحركيّة نفسيّة انفتحت على دلالات لها تأثير كبير في تحديد قناعاتهم، واستمالة رأيهم، وإقناعهم لتصديق دعوى الحسين(ع) بفرضيّة الوقوف أمام الحاكم الجائر الخارج عن تعاليم الدّين وسنّة النّبيّ(ص)، فالسّجع ظاهرة حيّة في الخطاب تؤدّي إلى التّأثير في تغيير المواقف والقناعات، وتحقيق الغايات انطلاقًا من تأسيس التحام صوتيّ ودلاليّ بين مفاصل الخطاب ينتهي بالأذهان إلى التّسليم والإذعان.

---

[1] ينظر:النّثر الفنيّ في القرن الرابع: 75.
[2] كتاب الصناعتين: 159.
[3] جمهرة خطب العرب: 48.

ومن هنا نعتقد أنّ تأثير البنيّة الكلاميّة للحجّة والموسيقى الخارجيّة يتضافران في صناعة الحجاج، وينتج هذا بتحريك مشاعر النّفوس، ومزجها بالموسيقى الإيقاعيّة في الخطبة لتتخلّل طروحات الخطيب إلى أذهان سامعيه، وسويداء قلوبهم من خلال هذه الآليّة البلاغيّة الحجاجيّة.

ومن الخطب الّتي تجلّلت بحلية السّجع، وحفلت بالتّناغم الإيقاعيّ الحجاجيّ؛ ما قاله الحجّاج(95هـ):**"إنّ للشيطان طيفًا، وللسلطان سيفًا، فمن سقمت سريرتُهُ، صحّت عقوبتُهُ، ومن وضعهُ ذنبُهُ، رفعهُ صلبهُ، ومن لم تسعهُ العافيةُ، لم تضق عنه الهلكة"**[1].

إنّ تناسب التّراكيب، ونظام إيقاعها، وجمال تناغمها، جاء من ميل الخطيب إلى توظيف حليتي السّجع في(طيفًا، سيفًا)، والموازنة والمجانسة بين الألفاظ في النّصّ كما يظهر، وهذا حقّق إيقاعًا زاخرًا بالتّأثير الدّلاليّ، ودقة المقاصد المبتغاة من الخطبة، فالحجّاج من بلغاء الخطباء الّذين يمتلكون قدرة بلاغيّة حجاجيّة إقناعيّة عاليّة، إذ كان يوازن بين العناصر الدّلاليّة والصّوتيّة بدون الإفراط أو التّفريط بإحداها على حساب الأخرى، ليفتح نافذة من المعاني تطلّ على غايات التّحذير طورًا، وللإطراب التّأثيريّ طورًا، لردع رغبات من تسوّل له نفسه بالتّفكير في الخروج عليه، ليكبح بذلك جماح نفوسهم إن كانت تسعى إلى القيام بثورة ضدّ حكمه وولايته، فهو يجعل من ذلك وسواسًا للشيطان الّذي سيلقى سيف السّلطان، فيجعل لكلّ جرمٍ جزاءً من العقاب، فالهلاك مصير المتمرّدين الموعود، بوصفها عاقبة واقعة حتمًا لمن يقوم بذلك، إذ نرى هذه الدّلالة جاءت من نظم إيقاعيّ موسيقيّ رفد الخطبة بطاقة حجاجيّة، لذلك تذهب الدّريدي إلى أنّ البعد الموسيقيّ يستولي على النّفوس، ويمتلك الأسماع بتأثير الأنغام، وما كان أملك للسّمع كان أفعل وأرسخ باللّب وبالنّفس[2]، فمتى ما كان الخطاب له وقع صوتيّ منتظم كانت دلالته أعلق في الأذهان، وأنفذ إلى القلوب.

فبات تركيب الخطاب الدّلاليّ بصبغته الصّوتيّة يتّسم بالقدرة على التّأثير في إنجاز عمليّة الإقناع، والإذعان، والتّسليم عند السّامعين، لتزيد التّصديق والاعتقاد بما سيحلّ بهم من بلاء إذا

---

(1) أدب السياسة في العصر الأموي:351.
(2) ينظر:الحجاج في الشعر العربي(بنيته وأساليبه):127.